

## "القوى العظمى في الشرق الأوسط الجديد"

حسين علي\*

أصدر مركز الدراسات الدولية والاستراتيجية (CSIS) تقريراً للكاتب/ جون مكلوجلين<sup>١</sup>، حمل عنوان "القوى العظمى في الشرق الأوسط الجديد"، تناول توصيف الأدوار التي تلعبها القوى الكبرى (الولايات المتحدة الأمريكية- روسيا- الصين- أوروبا) في منطقة الشرق الأوسط، حيث يحاول كل منها تحقيق مصالحها في المنطقة عبر وضع استراتيجيات تحقق أهدافها في الوقت الذي يشهد فيه المجتمع الدولي تغير مستمر في علاقات القوة بين أعضاء المجتمع الدولي، وفي ظل حالة الاضطراب والفوضى التي تشهدها منطقة الشرق الأوسط حالياً.

### السياق الاستراتيجي الراهن لمنطقة الشرق الأوسط

يعيش الشرق الأوسط حالياً سياقاً استراتيجياً مختلفاً عما كان عليه في وقت الحرب الباردة وما بعدها، من حيث التنافس الشديد بين القوى العظمى على فرض هيمنتها في المنطقة، والذي لم يكن بنفس شدة التنافس في أوروبا أو في شرق آسيا.

بعد نهاية الحرب الباردة بسقوط حائط برلين وانحيار الاتحاد السوفييت عام ١٩٨٩ و١٩٩١، دخل النظام الدولي مرحلة أصبح نهج القوى الكبرى أكثر مرونة في تعاملها مع منطقة الشرق الأوسط سواء باختيارها أو نتيجة الظروف التي تمر بها المنطقة. فخلال السنوات الأولى لمرحلة ما بعد الحرب الباردة، كانت روسيا والصين تدركان أن منطقة الشرق الأوسط تخضع لهيمنتها ولكن ما حدث بعد ذلك هو فرض الولايات المتحدة الأمريكية هيمنتها على المنطقة بأكملها.

وانتقلت روسيا من الاقتصاد الموجه إلى القطاع الخاص، واتبعت الصين سياسات الإصلاح الاقتصادي، وبعيداً عن التنافس الأمريكي السوفييتي، ركزت أوروبا على إعادة بناء العلاقات التقليدية مع دول منطقة الشرق الأوسط، وتعميق التكامل السياسي والاقتصادي داخل دول الاتحاد الأوروبي

\* باحث بالمركز القومي لدراسات الشرق الأوسط.

[1http://csis.org/files/publication/150306\\_McLaughlin\\_RockyHarbors\\_chapter3.pdf](http://csis.org/files/publication/150306_McLaughlin_RockyHarbors_chapter3.pdf)

وإرساء الأسس الخاصة بالتنمية الاقتصادية والتكنولوجية واستيعاب دول شرق أوروبا كأعضاء جدد داخل الاتحاد الأوروبي.

وفي الوقت نفسه اكتسبت الولايات المتحدة هامشاً جديداً من حرية الحركة على الصعيد الدولي كما لم يحدث من قبل، كقوة عظمى وحيدة، وقامت الولايات المتحدة باستغلال الأوضاع السياسية الجديدة في النظام الدولي لتعزيز مكانتها في أوروبا واتجاهها لبناء علاقات جديدة مع روسيا، وتوجهت لتعزيز نفوذها في منطقة البلقان، وركزت الولايات المتحدة على قضايا النفط ومواجهة الإرهاب والصراع العربي الإسرائيلي وحربين في العراق.

ولأول مرة بعد انتهاء الحرب الباردة، تم الفصل بين تنافس القوى العظمى على منطقة الشرق الأوسط، حيث بدأت القوى العظمى في تبني رؤى جديدة لعلاقتها مع دول المنطقة تركز على تحقيق مصالحها الوطنية وتم العمل على ذلك من خلال توقيع اتفاقيات التعاون الثنائي المشترك مع دول الشرق الأوسط. وبدأت المرحلة التالية في العلاقات بين القوى العظمى في ظل الأزمة الاقتصادية العالمية عام ٢٠٠٨ والتي أضعفت الثقة في الولايات المتحدة الأمريكية وفي نفس الوقت أصبحت روسيا أكثر حزمًا في سياساتها الخارجية واتضح ذلك من خلال احتلالها أجزاء من جورجيا، وتنامي إدراك الصين بضرورة تحدي الهيمنة الأمريكية عبر السياسات التنموية المتسارعة والتي نما معها الاقتصاد الصيني بمعدلات فائقة.

وفي هذا السياق تعد الولايات المتحدة الأمريكية هي القوى العظمى الأكثر تأثيراً وأقوى دولة في العالم. وفي حين تكيفت القوى العظمى الأخرى مع الديناميكيات الجديدة التي فرضتها الولايات المتحدة الأمريكية في إطار توازن القوى، شهدت منطقة الشرق الأوسط ثلاثة ظواهر غيرت ملامح المنطقة أولها الحرب الأمريكية على العراق، ثانياً التطرف الإسلامي وانتشار الجماعات المتطرفة في معظم دول الشرق الأوسط، وثالثاً ثورات الربيع العربي التي أسقطت أنظمة سياسية وغيرت العديد من المؤسسات والشخصيات التي خدمت لسنوات طويلة كقنوات لقوى خارجية.

وإزاء هذه الخلفية الاستراتيجية المعقدة فإنه ليس من المستغرب أن تتسم تلك السياسات بالتناقض والانحرافات المتكررة والتوترات الداخلية، وفي هذا الإطار يستعرض التقرير توجهات

وسياسات القوى العظمى تجاه منطقة الشرق الأوسط، وخاصة روسيا والصين والولايات المتحدة الأمريكية وأوروبا.

### توجهات السياسة الخارجية لروسيا نحو الشرق الأوسط

يشير التقرير إلى أن روسيا في عهد بوتين لابد أن تضع استراتيجية ثلاثية الشرق الأوسط وتعتمد على ثلاث أهداف رئيسية هي تعزيز النفوذ الروسي في محيط تأثيرها مثل أوكرانيا. وتقوية وتعزيز السيطرة السياسية والاقتصادية المحلية، والعمل على استعادة النفوذ الروسي في منطقة الشرق الأوسط حيث تسعى موسكو لمواجهة التهديدات الإرهابية، والحفاظ على مصالحها السياسية والاقتصادية الهامة في ظل منافستها مع الولايات المتحدة الأمريكية وحلفائها في المنطقة.

فالمصالح الروسية في منطقة الشرق الأوسط تصطدم دائماً بالمصالح الأمريكية، على الرغم من مشاركة روسيا للولايات المتحدة الأمريكية في الحرب ضد الإرهاب والجماعات المتطرفة في الشرق الأوسط. وفي هذا الإطار، قدم بوتين نفسه كمحارب للتطرف الإسلامي عندما حرّضت الحركات الاستقلالية في القوقاز الروسي المسلم مثل جمهورية الشيشان. وخلال الحربين الشيشانيتين ١٩٩٤، ١٩٩٩ هاجر المقاتلون الأجانب من الشرق الأوسط وجنوب آسيا إلى روسيا عن طريق جورجيا، ومع تأجيج المانحين للحركات الإسلامية الوليدة في تاتارستان وآسيا الوسطى راقبت روسيا الحركات الإسلامية في الشرق الأوسط وبدأت في البحث عن سبل لمكافحتها.

وقد سارت علاقات روسيا الإقليمية وفق سياسات محددة اتسمت في معظم الأوقات بالحساسية والصعوبة، الأمر الذي انعكس على تعقد العلاقات الدبلوماسية الروسية الإيرانية بعد قيام الثورة الإسلامية الإيرانية عام ١٩٧٩، حيث حجمت روسيا حينئذ من النفوذ الإيراني ومدى إمكانية تأثيره على الدول الإسلامية في آسيا الوسطى مثل أذربيجان وطاجيكستان وتركمانستان والتي تمثل الحدود الجنوبية لروسيا. غير أن روسيا تداركت الأمر واتبعت سياسة جديدة مع إيران عندما ساعدتها على بناء مفاعل نووي في بوشهر، وفي نفس الوقت لم تؤيد روسيا حصول إيران على أسلحة نووية وأيدت روسيا الغرب في فرض عقوبات دولية على طهران، ولكن روسيا دفعت في اتجاه فرض حزمة عقوبات أقل صرامة من تلك التي كانت تنادي بها الولايات المتحدة الأمريكية، ومؤخراً كان لروسيا دور كبير ومؤثر في مفاوضات البرنامج النووي الإيراني حيث رحبت بالاتفاق الاطاري الأخير بين إيران

ومجموعة ١+٥ وما تضمنه من رفع العقوبات الدولية المفروضة على إيران، حيث يوجد تحالف عند الضرورة بين روسيا وإيران وهو ما يعكس التذبذب الروسي من إيران من قبل، وتنامت علاقاتهما مؤخراً من خلال صفقات السلاح والعلاقات الاقتصادية المميزة بين الدولتين.

ويشير التقرير إلى أن روسيا قد اتجهت إلى تجاوز الاعتماد على العلاقات الأيديولوجية من خلال تطوير شبكة واسعة من العلاقات التجارية مع دول المنطقة، فعلى سبيل المثال أصبحت تركيا أكبر شريك تجاري لها في منطقة الشرق الأوسط حيث زادت التجارة البينية بينهما من حوالي ٤ مليار دولار في التسعينيات إلى أكثر من ٣٠ مليار دولار تقريباً عام ٢٠١٤. كما أن أكثر من ٦٠% من واردات الغاز الطبيعي لأنقرة تأتي من روسيا. كما أن لروسيا علاقات تجارية مع كل من إيران ومصر.

فعندما يتعلق الأمر بمبيعات السلاح الروسي نجد سوريا ومصر وإيران وليبيا، وتعد الجزائر من كبرى الدول العربية من حيث شراء السلاح الروسي بنسبة تعدت ٩٠% من روسيا وبلغت نسبة الصادرات الروسية من السلاح للجزائر ١١%.

يأتي الدور الروسي في منطقة الشرق الأوسط انطلاقاً من سعيها للعب دور فاعل في القضايا الإقليمية الرئيسية تحقيقاً لمجموعة من المصالح الاستراتيجية الهامة لروسيا في المنطقة. وسعياً لتحقيق هذا الهدف، عملت روسيا على توسيع شبكة عالمية من العلاقات مع كافة دول منطقة الشرق الأوسط بما فيها إسرائيل والمملكة العربية السعودية، وفي نفس الوقت تستخدم روسيا الدعم المالي والعسكري لحليفها الاستراتيجية في المنطقة سوريا في محاولة روسية لحل الأزمة السورية، وتستخدم روسيا نفوذها في مفاوضات ١+٥ مع إيران لتقليل أو تفكيك البرنامج النووي الإيراني، وما يدل على قوة الموقف الروسي في هذه المفاوضات هو عدم قدرة الغرب على التوصل إلى اتفاق مع طهران في عدم وجود روسيا.

وخلاصة القول، تعترف روسيا بأهمية التغيرات الجارية في الشرق الأوسط، كما تدرك أهمية بناء علاقات وتحالفات قوية مع دول المنطقة لضمان تحقيق مصالحها وتعزيز نفوذها من خلال لعب دور في القضايا الإقليمية الهامة بالمنطقة في الوقت الراهن.

### الدور الصيني في الشرق الأوسط

اعتمدت الصين في سياساتها الخارجية تجاه منطقة الشرق الأوسط على تأمين احتياجاتها من النفط والطاقة لاستخدامها في تحقيق المزيد من التنمية الاقتصادية والاستقرار السياسي، وقد

اقتصرت العلاقات الصينية بدول منطقة الشرق الأوسط على التبادل التجاري واستيراد النفط فقط، حيث تعتمد الصين على إمدادات النفط القادمة من دول الخليج المصدرة للبترول بنسبة ٥٥%، وهنا تبرز أهمية منطقة الشرق الأوسط بالنسبة للصين التي تعتمد على وارداتها من النفط في تحقيق التنمية الاقتصادية ومن ثم توفير فرص العمل للشباب الصيني بما يحقق في نهاية الأمر الرخاء لملايين الصينيين، الأمر الذي ينعكس على عملية الاستقرار السياسي في ظل النظام السياسي القائم على سياسة الحزب الواحد بالصين.

وبالتالي، تمثل التطورات السياسية والاقتصادية في منطقة الشرق الأوسط مصدر قلق كبير للصين التي تخشى من التداعيات المترتبة على هذه التطورات وخاصة بعد ثورات الربيع العربي، وخاصة أن أمن الطاقة لا يزال يشكل هاجساً لدى الصين في ظل ما تشهده المنطقة من اضطرابات من ناحية، وتزايد الدور الأمريكي في الشرق الأوسط من ناحية أخرى.

والواقع أن الولايات المتحدة وحلفائها الآسيويين (اليابان وكوريا) وأوروبا يعتمدون بشكل كبير على إمدادات الطاقة القادمة من الشرق الأوسط، ومن المؤكد أن استمرار هذه التحالفات ستحافظ على وظيفة الولايات المتحدة وبقيائها في الخليج وأماكن أخرى. غير أن هناك مصادر قلق أخرى لدى الصين تتمثل في تصاعد التوتر مع واشنطن، فالولايات المتحدة تستطيع أن تغلق مضيق ملقا التي يمر من خلاله ٨٠% تقريباً من واردات الطاقة للصين. كما تخشى الصين من احتمال ظهور خلافات مع الولايات المتحدة الأمريكية بشأن عدد من القضايا في تاوان ونزاعات بحر الصين الشرقي. مثل هذه المخاوف دفعت الصين لتحديث قواتها البحرية في السنوات الأخيرة والتوسع في تأمين حدودها البحرية على طول المحيط الهندي وحتى الشرق الأوسط، وتعد هذه الإجراءات التجارية للموانئ البحرية الصينية لخدمة استيراد النفط وإعادة التزود بالوقود للسفن العابرة.

ويشير التقرير إلى أن إمدادات الطاقة للصين تمثل إشكالية كبرى بالنسبة لها، وهو ما دفع الصين نحو ابتكار أدوات اقتصادية جديدة لتأكيد ضمان إمدادات الطاقة ووضعها على رأس أولويات القيادة السياسية في الصين، حتى تتماشى مع التحولات الاقتصادية الداخلية في الصين، حيث أدى ارتفاع نسبة الرخاء إلى زيادة الرواتب مما جعل الصادرات الصينية أقل قدرة على المنافسة، وتراجع النمو الاقتصادي من ٧% وظلت الدولة مثقلة بالشركات الكبيرة التي تستحوذ على ٣٥% من النشاط الاقتصادي.

وفي هذا الإطار، تؤكد الدراسة على أن الصين تسعى باستمرار للعب دور فعال في الشرق الأوسط، فعلى سبيل المثال تساهم الصين في قوات حفظ السلام بלבنان، وتعمل على توطيد علاقاتها بالعديد من الدول في المنطقة وخاصة مصر وتركيا. غير أن السياسة الخارجية الصينية تجاه الشرق الأوسط تركز الآن على تداعيات انتشار التطرف على المصالح الصينية الاستراتيجية في المنطقة، وهناك مبدأ رئيسي في السياسة الخارجية الصينية يتمثل في عدم التدخل في الشؤون الداخلية للدول وبالتالي معارضة تغيير النظم السياسية بالقوة وهو يختلف مع السياسات الخارجية للقوى الغربية وعلى رأسها الولايات المتحدة الأمريكية، فبعد قيام ثورات الربيع العربي في عدد من الدول العربية وما نتج عنها من اضطرابات أمنية وسياسية احتاجت إلى التدخل الدولي لحسم هذه الأمور وإعادة ترتيبها داخل هذه الدول مثل ليبيا، غير أن الصين رفضت التصويت على قرار مجلس الأمن الدولي الخاص بالتدخل الدولي في ليبيا.

وفي الوقت الراهن، يتفاقم القلق الصيني في منطقة الشرق الأوسط من تداعيات إعادة التوازن بين القوى العظمى ولا سيما الولايات المتحدة الأمريكية، الأمر الذي يفرض على الصين زيادة نشاطاتها في المنطقة عبر صياغة سياسات خارجية جديدة تتماشى مع ما تشهده منطقة الشرق الأوسط من تغيرات تؤثر على طبيعة العلاقات السياسية والعسكرية والتجارية مع دول المنطقة.

### الدور الأمريكي والأوروبي في الشرق الأوسط

أثبتت الأحداث التي شهدتها منطقة الشرق الأوسط، مدى تورط أوروبا والولايات المتحدة الأمريكية بشكل أكثر عمقاً في قضايا المنطقة، ويرجع الدور الأمريكي إلى التزاماتها العالمية بالحفاظ على الأمن القومي الإسرائيلي واحتياجاتها من الطاقة. بينما يعود الدور الأوروبي في المنطقة إلى التاريخ الاستعماري الأوروبي لدول المنطقة بتأمين احتياجاتها من الطاقة واعتمادها خلال الحربين العالميتين الأولى والثانية على ساحات القتال في الشرق الأوسط بشكل جزئي.

يمثل الوقت الراهن فرصة فريدة للشراكة الأوروبية الأمريكية تجاه دول منطقة الشرق الأوسط، فمن جهة تتقارب المصالح الأوروبية والأمريكية في الشرق الأوسط إلى حد كبير، ومن جهة أخرى يوجد تصور مشترك تجاه الشكل الجديد للشرق الأوسط سياسياً واقتصادياً وفقاً للمعايير الديمقراطية الأمريكية الأوروبية، حيث ترغب هذه القوى في وجود مجتمعات أكثر إنصافاً واقتصادات

أكثر انفتاحاً في دول المنطقة. وفي هذا الشأن تختلف القوى الغربية تماماً عن الصين التي مازالت ملتزمة بحكم الحزب الواحد، وروسيا التي تسير في نفس الاتجاه أيضاً. ومع ذلك وعلى الرغم من النظرة الأوروبية الأمريكية المشتركة والقوى الكبرى التي من المحتمل أن يعملان على ممارستها معاً، إلا أن نفوذهما الآن يعد أقل مما كان عليه من قبل في المنطقة.

### الخلاصة

تشير التطورات السياسية والأمنية الراهنة في منطقة الشرق الأوسط إلى وجود خيارات صعبة أمام الولايات المتحدة الأمريكية في التعامل مع العديد من القضايا الإقليمية والدولية، ويشير كذلك إلى أن الولايات المتحدة الأمريكية فقدت الكثير من نفوذها في المنطقة. وتعود الأسباب الرئيسية وراء تراجع النفوذ الأمريكي في المنطقة إلى التغيرات السياسية التي شهدتها منطقة الشرق الأوسط وخاصة في مصر، والتراجع عن استخدام عمل عسكري في سوريا بعد أن استخدم نظام الأسد أسلحة كيميائية، والاستياء السعودي والإسرائيلي خلال المفاوضات التي تقودها الولايات المتحدة مع إيران بشأن برنامجها النووي وخاصة مع إعلان أن البرنامج النووي الإيراني لا يهدف لإنتاج أسلحة نووية، في ظل المخاوف الخليجية من تزايد النفوذ الإيراني في المنطقة.

غير أن الولايات المتحدة الأمريكية تعمل حالياً على صقل أوراق اعتمادها كحليف استراتيجي لدول المنطقة من خلال تكوين التحالف الدولي لمواجهة تنظيم داعش، حيث تسعى الولايات المتحدة إلى الاستفادة من هذه التغيرات في المنطقة من أجل إعادة تأسيس قيادة أمريكية جديدة في المنطقة.

وباختصار هناك عدد قليل من نقاط الالتقاء بين سياسات القوى العظمى تجاه الشرق الأوسط في الوقت الراهن والذي يشهد حالة من الاضطراب وعدم الاستقرار، حيث تؤيد هذه القوى فكرة مواجهة الإرهاب ومعارضة تطوير إيران لبرنامجها النووي. غير أن طريقة تحقيق هذه الأهداف تتعارض بين القوى العظمى وخاصة القوى الغربية وغيرها، فكل من الصين وروسيا يرفضان أية ترتيبات جديدة تتضمن إسقاط أنظمة أو الانفصال وهو ما يفسر الموقف الروسي الحالي من الأزمة السورية.

وعلى خلفية ذلك أصبحت منطقة الشرق الأوسط مختبراً لسياسات توازن القوى العظمى التي تتنافس فيما بينها على مناطق النفوذ في المنطقة والتي ستعمل على إعادة تشكيل ملامح المنطقة خلال العقود القادمة.